دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد العاشر ديسمبر ٢٠١٤م (ص ٣٣١-٣٥٢)

منهج دعاء الأنبياء من خلال القرآن الكريم

محمد أمير حسين*

ملخص البحث: قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الدعاء مخ العبادة".[١] وفي رواية "الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ".[٢] وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣]. وللدعاء أهمية كبرى في قضاء الحوائج و الاستعانة به على نوائب الدهر حين تتقطع السبل و الأسباب. فقد ابتعد المسلمون في دعائهم لجهلهم بالدين الحنيف ووقوعهم في شبكات الشركيات والبدع والخرفات، ومن ضمن جهلهم عدم فهمهم معنى الدعاء، فتحولت الآراء الاجتهادية إلى تعصبات حزبية حيث جعله البعض شركا وكفرا أو طريقا إلى الشرك. فذهبوا إلى القبور وطلبوا منهم ما يطلب من الله، فبحثت خلال القرآن الكريم منهج الأنبياء والرسل في الادعية المستجابة الخاصة لهم وللأمة المسلمة عامة لكى يستفيد المسلمون في دعائهم ويترقون بها في حياتهم الدنيوية والأخروية. ففي هذه المقالة قدمت منهج دعاء الأنبياء الذي استجابه الله تعالى في حياتهم وصار نموذجا لهم ولجميع المسلمين من بعدهم. ورجأت أن يتبع المسلمون منهجهم ويجتنبوا عن طريق الشرك والخرافات والبدع.

مقدمة :

إن الدُعاء أكرم شيء على الله، شرعه الله لحصول الخير ودفع الشر، وهو سببٌ عظيم للفوز بالخيرات والبركات، وسببٌ لدفع المكروهات والشرورِ والكربات، والدعاءُ من القدَر ومن الأسبابِ النافعة الجالبة لكلِّ خير والدافعة لكل شرّ. قال النبي صلى الله عليه وسلم :"ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء"[٤]. وقد أمر الله –عز وجلّ– عبادَه بالدعاء في آياتٍ كثيرة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [٥].

وجدير بالذكر بأن الأنبياء والرسل –عليهم ا لسلام– هم أسوة حسنة في حياة المسلم، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

*المحاضر، القسم العربي، جامعة شيتاغونغ, بنغلاديش

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.[٦] وإنهم امتثلوا أوامر الله واجتنبوا عن نواهيه في حياتهم الانفرادية والاجتماعية والسياسية والدولية وغيرها. امتحنهم الله في حياتهم بالمصائب والنوائب وصبروا فيها واستخلصوا منها بدعائهم المستجابة، فصار هذا الدعاء وسيلة النجاة لهم ولأمتهم، وكما هو قدوة حسنة للأمة المسلمة جميعا، وإن الأنبياء والرسل هم أسوة حسنة للمؤمنين الذين يبتغون أفضل الطرق وأحسنها إلى الله –عز وجل–، قال الله تعالى بعد أن ذكر عددا من أنبيائه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[٧] والقرآن الكريم هو وجه هداية البشرية، قال الله تعالى : ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٨]. وقال قَتَادَةَ: جعل الله القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ حَفِظَهُ وَوَعَاهُ وَانْتَفَعَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَصَدَّقَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ فِيهِ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ[٩]. كما أن في هذا الموضوع إرشادات وتوجيهات للمسلمين في كيفية مخاطبتهم لربهم وسيدهم ومولاهم وكلما كان سؤال العباد لربهم ألطف كان النوال بهم أجدر.

مَعْنَى اَلْدُّعَاءِ لغة واصطلاحا:

الدُّعَاءُ في اللغة هو الرَّغْبَةُ إلى الله عَزَّ وجَلَّ.[١٠] وقال ابن القيم: الدُّعَاءُ هو طَلَبُ ما يَنْفَعُ الدَّاعِي، وطَلَبُ كَشْفِ ما يَضُرُّه أو دَفْعِهِ.[١١] وقال الخطَّابي: معنى الدُّعَاء اِسْتِدْعَاءُ العبدِ ربَّهُ عَزَّ وجَلَّ العِنَايَةَ، واسْتِمْدَادُهُ منه المَعُونَةَ[١٢].

وفي الاصطلاح : الدعاء هو إظْهَارُ الافْتِقَارِ إلى الله تعالى، والتَّبرُؤ من الحول والقوة، وهو سِمَةُ العبودية، واسْتِشْعَارُ الذِّلَّةِ البَشَرِيَّةِ.[١٣] وفيه معنى الثَّنَاءُ على الله عزَّ وجلَّ، وإضافة الجُودِ والكَرَمِ إليه.

وقال الشيخ علي الحذيفي: الدعاء هو تَعْظِيمُ الرَّغْبَةِ إلى الله في قضاءِ الحاجاتِ الدُّنْيوِيَةِ والأخْرَوِيَةِ ، وكَشْفِ الكُرُبَاتِ ودَفْعِ الشُّرُورِ والمَكْرُوهَاتِ الدُّنيوية والأخْرَوِيَةِ[١٤].

أهمية اَلْدُّعَاء ومكانته في حياة المسلم:

إذا أمعنا النظر إلى أهمية الدعاء ومكانته في الإسلام يتضح لنا بأن الدعاء له أثر كبير في حياة المسلم في تنقيته وتطوره، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١٥] وهي دَعْوَةٌ كَرِيمَةٌ مِنْ ربٍّ قَرِيبٍ مُجِيب الدُّعَاء لأن ندعوه ونستجيب له ونؤمن به سبحانه.

قال ابن كثير في تفسيره على الآية: المراد أنَّه تعالى لا يُخَيِّبُ دُعَاءَ دَاعٍ ولا يُشْغَلُهُ عنه شيء، بل هو سَمِيعُ الدُّعَاءِ، ففيه تَرْغِيبٌ في الدُّعَاءِ وأنه لا يَضِيعُ لَدَيْهِ سُبْحَانَهُ. وبَيَّنَ الله تعالى أنَّه يُنْعِمُ على من تَوَجَهَ إليه بالدُّعَاء، يُنْعِمُ عليه بِنِعْمَةِ الإجابة ولايَرُدُّهُ خائباً فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[١٦] قال ابن الجوزي في تفسيره زَادُ الْمَسِيرِ على الآية الكريمة " نَادَانَا " أي دَعَانَا مستنصرا على قومه وأن ينجيه من الغرق. وقال الإمام الرازي: هذه اللفظة "فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ " تدل على أن الإجابة من النِّعَمِ العظيمة، فسبحانه تعالى عبَّر عن ذاته بصيغة الْجَمْعِ فقال "نَادَانَا " والقَادِرُ العَظِيمُ لا يَلِيقُ به إلا الإحْسَانُ العظيم، وسبحانه أعَادَ صيغة الجَمْعِ في قوله " فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ " ليدل على تَعْظِيمِ تلك النِّعْمَةِ، لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنَّها نعمت الإجابة، والفَاءُ في قوله تعالى " فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ" يدل على أنَّ حُصُولَ هذه الإجابة مُتَرَتِبٌ على ذلك الدُّعَاءِ ، وهذا يدل على أن الدُّعَاءَ بالإخْلَاصِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الإجَابَةِ. ثم بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه:

الأول : قوله تعالى : "وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ" وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه.

والثاني : قوله: "وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ" يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا، قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث، فسام أبو العرب، وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك.[١٧]

وفي السنة النبوية روي سلمان الفارسي –رضي الله عنه– عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ".[١٨] وعن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض[١٩]. وعن عبد الله أبى هاشم قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله يا بني أكثر من الدعاء فإن الدعاء يرد القضاء المبرم[٢٠]. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله إن أعجز الناس من عجز في الدعاء وإن أبخل الناس من بخل بالسلام.[٢١]

منهج دعاء الأنبياء خلال القرآن الكريم

إذا أمعنا النظر إلى القرآن الكريم يتضح لنا بأن الأنبياء والرسل هم دعوا الله تعالى في مصائبهم ونوائبهم، كما أنهم دعوه في سرورهم وبهجتهم حمدا وشكرا لله عز وجل. وإنهم قد سلكوا في دعاءهم منهجا سليما، كى يفرح لهم الله ويغفرهم ويدافع عنهم ويستجيبهم ما سألوه الذي وعدهم الله بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٢٢]. ومن المسلك الذي سلك عليه الأنبياء والرسل في دعائهم إلى الله عز وجل فيمايلي:

اولا : التوسل بوحدانية الله تعالى اعترافا بالذنوب :

نرى في القرآن الكريم بأن الأنبياء والرسل هم دعوا الله تعالى بالتوسل بوحدانيته اعترافا بذنوبهم و إظهارا بضعف أحوالهم وموقفهم، كما قال لله تعالى في قصة يونس عليه السلام : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢٣].

ولا يخفى على أحد بأن المراد ب"ذا النون" هو يونس[٢٤] -عليه السلام-، وإنه عليه السلام دعا الله تعالى في بطن الحوت في ظلمات ثلاثة اعترافا بذنبه تائبا إليه تضرعا له لكي يغفره الله تعالى وينجيه من مصيبته التى وقع فيه، فأحسن ما دعا، وذكر الله تلك القصة في القرآن الكريم.

بين الله تعالى في هذه الآية االكريمة بأن النبي يونس -عليه السلام- دعاه في الظلمات. وفي معنى الظلمات إختلاف بين العلماء المفسرين، روي عن عمرو بن ميمون قال: الظلمات ثلاثة، هى ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وكذلك قال أيضا ابن جريج و ابن عباس[٢٥].

قال سالم بن أبي الجعد : والظلمات هى ظلمة الحوت، ثم حوت، ثم ظلمة البحر. يعنى أن حوتا أكل يونسا -عليه السلام-، ثم أكل هذا الحوتَ حوت آخر في ظلمة البحر، ونادى يونس -عليه السلام- في هذه الظلمات الثلاثة ربه تنزيها له، واعترافا بذنبه وقال : ﴿لاإِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. اعترف في هذه الآية الكريمة بأنه إله واحد لا ثاني له، كما

لا شريك له، وهو منزه من كل شرك، فأوحى الله تعالى إلى الحوت التى أكلته أن لا تضرّ له لحما ولا عظما، ثم ابتلع الحوت الحوت الثاني في ظلمة البحر إلى شاطئ البحر[٢٦].

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه في الظلمات ﴿أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا شك أنه قد عنى بإحدى الظلمات: بطن الحوت، وبالأخرى: ظلمة البحر، وفي الثالثة اختلاف، وجائز أن تكون تلك الثالثة : ظلمة الليل ، وجائز أن تكون كون الحوت في جوف حوت آخر، ولا دليل يدلّ على أيّ ذلك من أيّ، فلا قول في ذلك أولى بالحقّ من التسليم لظاهر التنزيل[٢٧].

وقال العلامة السيوطي: إن الله تعالى استجاب دعوة يونس –عليه السلام– وعفاه ونجّه من بطن الحوت، وقال : أخرَج ابن أبي حاتم، وَابن أبي الدنيا في الفرج، وَابن مردويه عن أنس رفعه : أن يونس حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه في بطن الحوت قال : اللهم ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقبلت الدعوة تحف بالعرش فقالت الملائكة : هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذلك؟ قال : يا رب وما هو؟ قال : ذاك عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قال : نعم، قالوا : يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء قال : بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء فأنبت الله عليه اليقطينة[٢٨].

و عن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال : دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له[٢٩].

وعن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اسم الله الذي دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى ، قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله : ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه. [٣٠]

وقال الإمام البغوي بأن الله تعالى استجاب دعوة يونس –عليه السلام– بشفاعة الملائكة، وقال : روي عن أبي هريرة مرفوعا: أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه: أن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة، وفي رواية صوتا معروفا من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم فشفعوا له عند ذلك.[٣١]

وعن سعد ابن أبي وقاص قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوة ذي النون (يونس عليه السلام) إذا دعا بها في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فإنه لن يدعو بها مسلم في شي إلا استجيب له[٣٢].

وعن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أن النَّبيّ –صلى الله عليه وسلم– قال : هل أدلكم على اسم الله الأعظم دعاء يونس (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فأيما مسلم دعا ربه به في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد ، وإن برأ برأ مغفورا له[٣٣].

ومن دعاء يونس –عليه السلام– في هذه الحالة العصيبة وهذا الهم الذي كان فيه، نستفيد أن الدعاء لكشف الغم ورفع الابتلاء يحسن بهذه الطريقة المتمثلة في تمجيد الله – عز وجل – بوحدانيته وتنزيهه عن كل نقص مع إثبات قدرته وحده – عز وجل – على رفع هذا البلاء الذي ما حل إلا بسببٍ من جهة الداعي مع الاعتراف بالتقصير والتعريض بالتوبة للنجاة من هذه الغمة ولتفريج الكربة.

ثانيا : التوكل على الله و الاستعانة منه :

نرى الأنبياء والرسل كانوا متوكلين على الله –عز وجل– في كل حين وفي كل لحظة. وهم لا يخافون لومة لائم، ويشهد القصة القرآنية بأن الرسول إبراهيم –عليه السلام– لما دعا الناس إلى وحدانية الله كادوا أن يحرقوه في النار، ولهذا الهدف بنوا له بنيانا يشبه التنور، فألقوه فيها. وكان إبراهيم –عليه السلام– مؤمنا به ومتوكلا عليه، ولما ألقوه في النار قال : حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، أَوْ قَالَ : حَسْبِيَ

اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[٣٤]. وبهذا التوكل نجاه الله من النار. وقال تعالى مشيرا إلى هذه الواقعة :(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ – فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ – وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ – رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ – فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ–)[٣٥]

وذكر الإمام الطبري: لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ جمعوا له الْحَطَب فَلَمَّا ألقوه فِيهَا، قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، أَوْ قَالَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[٣٦].

وقال العلامة السيوطي[٣٧] : أن أهل نمرود[٣٨] حبسوا إبراهيم في بيت وجمعوا له حطبا وأكثروا من الحطب حتى إن كانت الطير لتمر بها فتحترق من شدة وهجها، فعمدوا إليه، فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم –عليه السلام– رأسه إلى السماء فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة إبراهيم يحرق فيك فقال : أنا أعلم به وإن دعاكم فأغيثوه، وقال إبراهيم –عليه السلام– حين رفع رأسه إلى السماء : اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض ولد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل، فقذفوه في النار فناداها (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[٣٩]. فقال ابن عباس : لو لم يتبع بردا سلاما لمات إبراهيم من بردها ولم يبق يومئذ في الأرض نار إلا طفئت[٤٠].

وأخرج أحمد في الزهد ، وعَبد بن حُمَيد من طريق أبي هلال عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار جاءت عامة الخليقة فقالت : يا رب خليلك يلقى في النار فائذن لنا نطفئ عنه ، قال : هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري فإن استغاثكم فأغيثوه وإلا فدعوه قال : وجاء ملك القطر قال : يا رب خليلك يلقى في النار فائذن لي أن أطفئ عنه بالقطر ، قال : هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري فإن استعان بك فأعنه وإلا فدعه ، قال : فلما ألقي في النار دعا بدعاء نسيه أبو هلال فقال الله عز وجل : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) قال : فبردت في المشرق والمغرب فما أنضجت يومئذ كراعا[٤١].

وقال الإمام القرطبي في تفسيره[٤٢] : قوله تعالى : (قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً) ثم تملئونه حطبا فتضرمونه، ثم ألقوه في الجحيم. قال ابن عباس: بنوا حائطا من حجارة طوله في السمآء ثلاثون

ذراعا، وملأوه نارا وطرحوه فيها. وقال ابن عمرو بن العاص: فلما صار في البنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل[٤٣].

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية المذكورة تدل بأن الله تعالى يقبل دعاء الأنبياء و الرسل و الصالحين حين دعوه متضرعا متوكلا عليه.

ثالثا : طريقة طلب الأولاد والدعاء لهم:

الأولاد هم نعمة الله العظمى لأبائهم وأمهاتهم، و نحن نرى الأنبياء هم دعوا الله للاولاد الصالحين وأن يجعلهم إماما، كما في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا).[٤٤] وقال ابن عباس : من يعمل لك بالطاعة فتقرّ بهم أعيننا في الدنيا والآخرة[٤٥]. وقال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره "محاسن التأويل" أي : أولاداً وحفدة ، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل. وقال الإمام الرازي: هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح[٤٦].

ولما هاجر إبراهيم –عليه السلام– من سواد الكوفة إلى الشام وأحس نفسه وحيدا ليس له من الأولاد، بيدأنه وصل إلى عمره اليأس دعا إلى الله عز وجل لأن يرزقه ولدا صالحا من قدرته وقال : (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) [٤٧] أي يَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ وَلَدًا يَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يُطِيعُونَكَ، وَلاَ يَعْصُونَكَ، وَيُصْلِحُونَ فِي الأَرْضِ، وَلاَ يُفْسِدُونَ[٤٨]. وقال محمد جمال الدين القاسمي: (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) أي : ولداً صالحاً يعينني على الدعوة والطاعة[٤٩].

وقال ابن عاشور: (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) أى أنه لما هاجر إلى الشام استشعر قلة أهله وعقم إمرأته هاجر وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى؛ لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه[٥٠].

وقال الدكتور عبد الكريم الخطيب : قوله تعالى : (وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ). لقد نجّى اللّه إبراهيم من النار، وأغرق قومه فى لجج الكفر والضلال، فتركهم إبراهيم يتخبطون فى هذا البحر اللجّى من الضلال، وقال : (إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ) أي إنى متجه إلى ربى، معتزل إياكم،

متخذ دارا غير داركم، وموطنا غير موطنكم. ولا أدرى إلى أين سأذهب. ولكنى موقن أن الله سيهدينى إلى خير دار، وأطيب مقام، هذا هو ظنى بربي الذي أعبده وأسلم أمرى له[٥١].

و بعد ذهابه إلى الشام دعا ربه للولد وقال : (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) وهنا يجد إبراهيم نفسه وحده، بعيدا عن الأهل والوطن . وقد خلا قلبه من الاشتغال بأمر قومه ، فالتفت إلى نفسه ، ووجد أن لا ولد له، يؤنسه فى وحدته، ويشد ظهره فى غربته، فسأل ربه أن يرزقه ولدا صالحا، تقر به عينه حين يراه مؤمنا بربه، لا تختلف بينه وبين السبل، كما اختلفت من قبل بينه وبين أبيه، هو[٥٢].

وقال أبو يوسف محمد زايد : (إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي) أي : مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة، أرض الشام . " سيهدين " يدلني على ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنيوي . وقال في الآية الأخرى : (وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا)[٥٣] رب هب لي " ولدا يكون " من الصالحين " وذلك، عندما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيرا، دعا الله أن يهب له غلاما صالحا، ينفع الله به في حياته، وبعد مماته . فاستجاب الله له وقال : " فبشرناه بغلام حليم " وهذا إسماعيل –عليه السلام– بلا شك[٥٤] .

ثم نرى في القرآن الكريم بأن إبراهيم –عليه السلام– سأل الله تعالى أن يجعل أولاده مقيمى الصلاة التى هى أفضل العبادة، كما قال تعالى : (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة. وقال في آية آخري: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) أي إنما أسكنت إسماعيل وأمه هاجر بأرض ليس بها ضرع ولا زرع ولا أنيس ليعبدوك فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم تنزع إلى الحج في تفسير الحسن. وقال ابن عباس: ولو كان قال "فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم" لحجه اليهود والنصارى[٥٥].

وقال ابن كثير: قوله تعالى(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: "أفئدة الناس" لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال "من الناس" ب"من" التبعيضية فاختص به المسلمون[٥٦].

رابعا: مراعاة حسن الأدب وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة:

ولا يخفى بأن الأنبياء والرسل – عليهم السلام – دعوا الله تعالى و راعوا فيه من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولذا منَّ الله عليهم بحسن القبول وإعطاء المسئول. ومن الأمثلة:

قال إبراهيم –عليه السلام– حين أسكن ذريته في الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، ونقل الله تعالى قوله في القرآن الكريم بقوله : (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[٥٧].

عن ابن عباس قال : أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) حَتَّى بَلَغَ {يَشْكُرُونَ} وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى[٥٨].

وفي الآية الكريمة كرر الله النداء (رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي .....رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ) رغبة في الإجابة وإظهارا للتذلل، والالتجاء إلى الله تعالى[٥٩]. و جملة (إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي) مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع. وفي كون النداء تأكيدا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله. وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه[٦٠].

وقال محمد رشيد رضا في تفسيره : وَقَدْ رَاعَى إبراهيم –عليه السلام– الْأَدَبَ فِي طَلَبِهِ، فَلَمْ يَطْلُبِ الْإِمَامَةَ لِجَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ بَلْ لِبَعْضِهَا ؛ لِأَنَّهُ الْمُمْكِنُ وَفِي هَذَا مُرَاعَاةٌ لِسُنَنِ الْفِطْرَةِ أَيْضًا. وَذَلِكَ مِنْ شُرُوطِ الدُّعَاءِ وَآدَابِهِ، فَمَنْ خَالَفَ فِي دُعَائِهِ سُنَنَ اللهِ فِي خَلِيقَتِهِ أَوْ فِي شَرِيعَتِهِ، فَهُوَ غَيْرُ

جَدِيرٍ بِالْإِجَابَةِ، بَلْ هُوَ سَيِّئُ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُوهُ لِأَنْ يُبْطِلَ لِأَجْلِهِ سُنَّتَهُ الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ أَوْ يَنْسَخَ شَرِيعَتَهُ بَعْدَ خَتْمِ النُّبُوَّةِ وَإِتْمَامِ الدِّينِ[٦١] .

وبعد استعراض أقوال العلماء في هذه الآية وما أكدوا عليه من توافر أدب الدعاء وحسن الضراعة إلى الله لتحقيق المطلوب واستنزال الإجابة، فإنه من الواضح كيف استجاب الله – عز وجل – لخليله إبراهيم – عليه السلام – حتى أصبحت مكة المكرمة من عواصم العالم تهوي إليها أفئدة الناس ويأتيها رزقها من كل مكان رغم أنه في فترات كثيرة قل شكر سكانها وأشركوا بالله وتركوا الصلاة كما كان قبل بعثة محمد – صلى الله عليه وسلم – ومع ذلك فقد أنفذ الله لخليله طلبه ولم يسُئه في ذريته بل أكرمه وجعل من عقبه محمداً – صلى الله عليه وسلم.

ومما يستنبط من هذا الدعاء الذي أُسقِطت منه أداة النداء وتعرَّض فيه الخليل وذريته لوصف الربوبية المشتمل على صفات الإحسان والرحمة والرأفة بالعباد، أن يبدأ الإنسان في دعائه بتمجيد الله – عز وجل – وذكره بأقرب الصفات وأنسبها إلى حاجته وأن يؤخر المطلوب إلى ما بعد ذكر حالته الداعية إلى طلبَ الحاجة لاستنزال الرحمة والرأفة من الرحمن الرحيم، ولو اكتفى المسلم بذكر حاله وضعفه غير مصرح بحاجته لكفاه، لأن الله عليم بذات الصدور وهو أعلم بما يصلح حال الإنسان منه، فقد بدأ إبراهيم دعائه بوصف حاله وحال ذريته في ذلك الوادي البلقع الخالي من كل وسائل العيش الضرورية مستنزلاً بذلك رحمة الله – عز وجل – ولطفه بعباده.

ثم يختتم الداعي دعائه بما يدل على أن استجابة الله – عز وجل – دعائه أدعى لشكره كأن يقول العبد في ختام دعائه ربي واجعلني من الشاكرين أو أن يقول اللهم واعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك أو أن يقول اللهم ولا تشغلني بما تعطيني عما يرضيك عني.

خامسا : الدعاء في الوقت المناسب وحسن اختيار الألفاظ:

إذا أمعنا النظر إلى دعاء الأنبياء والرسل رايناهم يدعونه بمقتضى الحال، كما أن موسى –عليه السلام– حين اضطر للخروج من مصر خائفاً من القتل كان دعائه لأن ينجيه الله من عدوان فرعون وقومه، فقال تعالى : (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٦٢].

فلما أمن الخطر و نجا من القوم وتوجه تلقاء مدين فقال تعالى: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) [٦٣]. اى لما خرج موسى –عليه السلام– فارا بنفسه منفردا خائفا، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : (عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ). وقال القرطبي: روي أنه كان يتقوت ورق الشجر، وكان فرعون وجه في طلبه وقال لجنوده : اطلبوه في ثنيات الطريق، فإن موسى لا يعرف الطريق فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عنزة، فقال لموسى: اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق[٦٤].

فبعد أن نجاه الله من فرعون وقومه انحصرت حاجته في أن يجد ملجئاً يأوي إليه وملاذاً يسكن إليه، فدعا ربه أن يهديه إلى سواء السبيل وذلك بألطف عبارة وأجمل أسلوب حتى أورده الله ماء مدين. ووجد فيه إمرأتين تذودان فساعدهما في سقاية الماء ثم تولى إلى الظل وهناك دعا ربه مخاطبا له من غير إداة النداء معرضا بجوعه وتعبه. وجاء هذه الحكاية في القرآن الكريم قال تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[٦٥].

وبعد أن سقى للمرأتين واستقر به النوى وأحس بالجوع والتعب دعا موسى – عليه السلام – دعاءً يناسب حاله بطلب الخير من الله – عز وجل– معرِّضاً بجوعه وتعبه، وقبل الحديث عن ملامح الأدب في هذا الدعاء وحسن الضراعة إلى الله بما يليق به واستنزال رحمته وربطاً مع الدعوات السابقة لموسى – عليه السلام – في هذه الرحلة الشاقة، فإنه يحسن بنا أن نستنبط من هذا التدرج في الدعاء والذي يشير إلى أهمية مناسبة الدعاء لحال الداعي، فلم يقل موسى – عليه السلام – وهو يخرج من مصر خائفاً "ربي زوجني أو ربي أرزقني ملك مصر أو ربي أزل ملك فرعون وقومه"، بل كان دعائه – عليه السلام – فيما يصلح شأنه بأن قال: (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، حتى إذا أمن الخطر ونجا من القوم الظالمين، دعا ربه أن يهديه إلى سواء السبيل حتى إذا هداه ربه إلى أهل مدين ووجد أمة آخرى خارج ملك فرعون وقومه ووجد ماءً وظلاً، دعا ربه أن يرزقه من خير ما عنده.

وبعد سقاية الماء ذهب إلى ظل الشجرة، فدعا الله تعالى الخير ولم يصرح سؤاله استطعافا وترحما وقال : (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[٦٦].

وفي ناحية آخرى ذهبت الإمرأتان إلى بيتهما واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلا بطانًا فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٦٧]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته.[٦٨]

ففي الأمثلة المذكورة نرى بأن النبي موسى –عليه السلام– اختار أحسن الألفاظ في الدعاء كاستخدام الفعل الماضي بدل المضارع وحذف أداة النداء واستخدام الألفاظ الدالة على علو مكانة الله – عز وجل–، واستخدام المؤكدات اللفظية الدالة على شدة الاحتياج، وعدم التصريح بالسؤال تقرباً إلى الله – عز وجل– باليقين بأنه يعلم السر وأخفى وأنه يعرف بما يُصلِح من شأن موسى –عليه السلام–. فذكر حالته الدالة على احتياجه ليستجيبه الله – عز وجل– بما هو يصلح لشأنه.

وقال القرطبي: للدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسحر ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض، وعند نزول المطر والصف في سبيل الله. كل هذا جاءت به الآثار. وروى شهر بن حوشب أن أم الدرداء قالت له: يا شهر، ألا تجد القشعريرة؟ قلت نعم. قالت: فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك[٦٩].

سادسا: السر في الدعاء من غير رياء ولا سمعة :

قال الكيا هراسى في تفسيره : دعاء الرب سراً هو أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص[٧٠]. فلذا نرى في القرآن الكريم أن الأنبياء والرسل هم دعوا الله تعالى سرا، وأثنى الله –عز وجل– عليه، وقال في دعاء ذكريا –عليه السلام– (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا)[٧١] وقال الله تعالى في موضع آخر : (ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[٧٢]. وقال قتادة : إن الله يحب الصوت الخفي والقلب النقي[٧٣].

وقال القرطبي : إن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر. وقال أيضا هذا أمر بالدعاء وتعبد به. ثم قرن –جل وعز– بالأمر صفات تحسن معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع سرا في النفس ليبعد عن الرياء[٧٤]. وفي رواية عن سعد بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي[٧٥].

قال السمرقندي في تفسير (نداء خفياً) : إن إبراهيم –عليه السلام– دعا ربه دعاء سراً، لأنه علم أن دعاء السر أنفع وأسرع إجابة[٧٦]. فاستجاب الله تعالى وقال : (فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ).[٧٧]

قال الشنقيطي: "السبب في الإخفاء هو الإخلاص وليس غيره ثم قال وفي هذه الآية دلالة على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه"[٧٨].

سابعا : الدعاء بوسيلة صفات الله العظيمة :

نحن نرى في القرآن الكريم بأن الأنبياء والرسل هم دعوا الله بوسيلة اسمه الجليل وصفاته الكريمة وهو أقرب للاستجابة، كما قال في قرآنه المجيد (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)[٧٩]. والمعنى: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى. ولا شك أن صفاته العليا –عز وجل– داخلة في هذا الطلب، لأن أسماءه الحسنى صفات له، خصت به تبارك وتعالى.

كأن المسلم يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي[٨٠]. ومثله قول القائل: اللهم إني أسألك بحبك لمحمد، فإن الحب من صفاته تعالى.

ومن الأدلة أيضاً قول النبي (في أحد أدعيته الثابتة عنه قبل السلام من صلاته): اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بعد القضاء

وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين[٨١].

ومنها أنه سمع رجلاً يقول في تشهده: اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم قد غفر له ثلاثا[٨٢]. وعن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا كربه أمر قال : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.[٨٣]

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى من دعاء سليمان –عليه السلام– حيث قال: (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[٨٤].

ثامنا : الدعاء بوسيلة الأعمال الصالحة :

اتفق العلماء على مشروعية الدعاء بالأعمال الصالحة، كما نرى في القرآن الكريم بأن الله تعالى علم نبيه محمدا صىلى الله عليه وسلم اسلوب الدعاء إليه فقال تعالى : (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[٨٥]. وقوله تعالى: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ).[٨٦] وقوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ).[٨٧] وقوله: (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)[٨٨].

وذلك أن الداعي يذكر عملاً صالحاً ذا بال، فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره و رضاه على كل شيء، وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى ربه في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته.

ففى هذه الآيات الكريمة قدم الأمة المسلمة التوسل بالعمل الصالح وهو الإيمان على الله وألإطاعة لرسوله رجاء الاستجابة وطلب المغفرة والرحمة، وهو صحيح بإجماع المسلمين.

تاسعا : نسبة الخطاء والذنوب إلى نفسه لا إلى الله :

نحن نرى في القرآن الكريم بأن الأنبياء والرسل هم دعوا الله في مصائبهم ونوائبهم لأن ينجوهم من ذلك البلاء، ونسب الخطاء والذنوب إلى أنفسهم كما نرى أيوب –عليه السلام– أنه لما أبتلاه الله – عز وجل– بالمرض وكان بلاءً شديداً أشاد الله بصبره كما أشاد بدعائه – عليه السلام –: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[٨٩].

قال ابن حيان: "وقد ألطف أيوب في المسألة حين ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ولم يعين الضر الذي مسه ولم ينسبه إلى الله مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو".

ونستفيد من دعاء أيوب –عليه السلام– بأن نسبة الشر إلى الداعي أبلغ في الدعاء وأسرع في الإجابة، كما أن عدم التصريح بالمطلوب هو من دواعي إجابة الدعاء ومن كمال الأدب مع الله – عز وجل. وهذا أيضا من الأدب بأن أيوب –عليه السلام– استخدم التأكيد اللفظي في الدعاء لبيان شدة الحاجة إليه وهو من باب الإلحاح على الله في الدعاء. كما لاينبغي للداعي أن ينسب ما أصابه من ضُرٍ أو بلاءٍ أو نصبٍ إلى الله – عز وجل – تأدباً معه – سبحانه وتعالى – مع أنه قدره وكتبه.

عاشرا: دعاء الشرك والبدعة والخرافة:

إن كثيرا من الناس يذهبون إلى قبور الأولياء والصالحين ويعظمونهم ويقدسونهم، وهم في الحقيقة يعبدونهم ومن فرط حبهم لهم ينصرفون إليهم ويجعلون لهم النذر ويطوفون حول قبورهم كما يطوفون حول الكعبة المشرفة فيسألون منهم المدد والعون والأولاد، وهذا الدعاء من الميت كدعاء المشركين من الأصنام في الجاهلية في قوله تعالى: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَا)[٩٠] وهم يقولون إن المشركين في الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام أما نحن فلا أصنام عندنا نعبدها بل لدينا قبور الأولياء والصالحين لانعبدها بل نسأل الله متوسلا بهم أن يقضى حاجاتنا إكراما لهم ببركة دعائهم.

ونقول في الجواب : إن طلب المدد والبركة وكذا طلب الأولاد وقضاء الحاجات ودفع الكربات من الميت هو في الحقيقة دعاء كما كانت الجاهلية تدعوا أصناما تماما، ولا فرق بين الصنم و بين القبر، فإن الصنم والقبر والطاغوت كلها أسماء تحمل معنى واحد وتطلق على كل من عبد من دون الله، سواء كان حيا أو ميتا أو جمادا أو حيوانا وما إلى ذلك.

فعلى كل من ابتلى بمثل هذه الشركيات والبدع والخرفات من طواف حول القبور وتعظيمها وسؤال أصحابها الحاجات وتفريج الكربات أن يتوب إلى الله توبة نصوحا ويقنطوا من رحمة الله فإن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم.

خاتمة:

هذا من الواضح بأن منهج دعاء الأنبياء والرسل قدوة صالحة للأمتهم المسلمة، فاستعراضنا لمحة بسيطة من منهجهم في الدعاء من حسن الأسلوب واختيار الألفاظ المناسبة في الطلب واختيار الأوقات الحسنة والأماكن الفضيلة والحالات التي يتبين فيها نزول رحمة الله – عز وجل– وله أثر كبير في إجابة الدعاء. ومن لطائف الدعاء المستجابة التعريضُ بالحاجة دون ذكرها، ونستخدم الألفاظ المؤكدات لإثبات شدة الحاجة ونتوسل إلى الله –عز وجل– بأسماءه الكريمة وصفاته العظيمة بما يليق شانه، فيكون الدعاء مستجابا ويزيد من حيث لا يحتسب كما في قوله تعالى : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ– فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).[91] وقال الإمام الطبري: فَلَمَّا دَعَا أيوب اسْتَجَابَ لَهُ، وَأَبْدَلَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ذَهَبَ لَهُ ضِعْفَيْنِ، رَدَّ إِلَيْهِ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ[92].

المراجع والمصادر

---

١ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق : أحمد محمد شاكر، ج٥(بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٨م)، ص٤٥٦؛ الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، ج٣(القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥)، ص٢٩٣. قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. قال الشيخ الألباني : ضعيف.

٢ الترمذى، المصدر السابق، ج٥، ص٣١٦. وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. أنظر: ج٥، ص٣١٦.

٣ سورة غافر : ٦٠.

٤ سنن الترمذي، المصدر السابق، ج٥، ص٤٥٥؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة،ج٥(الناشر: مكتبة أبي المعاطي، د.ت)، ص٦.

٥ سورة غافر : ٦٠.

٦ سورة الأحزاب: ٢١.

٧ سورة الأنعام : ٩٠.

٨ سورة النمل: ١-٢.

١٩ لطبري. أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن، ج٢(الناشر: دار هجر، د.ت)، ص٣٠٠؛ الرازي، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم. تفسير ابن أبي حاتم، ج١(صيدا: المكتبة العصرية، د.ت)، ص١٨١.

١٠ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ج١(بيروت: دار صادر، د.ت)، ص ٩٨٦ .

١١ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا، ط١(مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، الناشر : مكة المكرمة، ١٩٩٦م)، ج٣، ص٢.

١٢ هيثم حيدر. الاعتداء في الدعاء، ج١، ص٥، المكتبة الشاملة، الاصدار ٣.٢٨.

١٣ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج١(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤ م)، ص.٢٩٥

١٤ www.alminbar.net

١٥ سورة البقرة : ١٨٦.

١٦ سورة الصافات: ٧٥.

١٧ الرازى، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ج٢٦ (بيروت: دار إحياء التراث العربى)، ص٣٣٩.

١٨ سنن الترمذي، المصدر السابق، ج٥،ص٥٥٦.

١٩ مسند أبي يعلى، تحقيق : حسين سليم أسد، ج١، ط١(دمشق: دار المأمون للتراث،١٩٨٤م)، ص٣٤٤. وقال : إسناده ضعيف.

٢٠ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، الترغيب في الدعاء، تحقيق : فواز أحمد مرلي (بيروت: دار ابن حزم، ٥٤١هـ - ٦٠٠هـ)، ص٣٥، وقال سنده ضعيف.

٢١ الترغيب في الدعاء، المصدر السابق، ص٣٥؛ أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، الترغيب والترهيب، ج٣ (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٣ م)، ص١٦٩.

٢٢ سورة غافر: ٦٠.

٢٣ سورة الأنبياء :٨٧.

٢٤ هو يونس بن متى بن ماثان، ومتى أم يونس -عليه السلام-، ولم يشتهر نبي بأمه غير عيسى ويونس -عليهما السلام-. وقيل إنه من بني إسرائيل، وإنه من سبط بنيامين بن يعقوب، بعثه الله تعالى إلى أهل نينوى وهي قبالة الموصل، بينهما دجلة – وكانوا يعبدون الأصنام، فنهاهم وأوعدهم العذاب في يوم معلوم إن لم يتوبوا، وضمن ذلك عن ربه عز وجل. فلما أظلهم العذاب آمنوا، فكشفه الله عنهم، وجاء يونس لذلك اليوم، ولم ير العذاب حل، ولا علم بإيمانهم، فذهب مغاضباً. قال ابن سعيد المغربي: ودخل في سفينة من سفن دجلة، فوقفت السفينة، ولم تتحرك، فقال رئيسها: فيكم من له ذنب؟ وتساهموا على من يلقونه في البحر، ووقعت المساهمة على يونس، فرموه، فالتقمه الحوت، وسار به إلى الأبلة، وكان من شأنه ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١، ص١٢١؛ http://www.alwaraq.com ؛ حياة الصحابة للكاند هلوي، ج١، ص٢٩٠؛ معجم المحدثين للذهبي، حرف الألف، ج١، ص٢؛ http://ar.wikipedia.org.

٢٥ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١٠(مصر: دار هجر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، ص٣٤٤.

٢٦ الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ص٣٨٣.

٢٧ الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ص٣٨٣.

٢٨ السيوطي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٤٤؛ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، المصدر السابق، ج١٠، ٣٢٢٧؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، ط٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م)، ج٧، ص٣٩.

٢٩ السيوطي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٤٩.

٣٠ نفس المصدر والصفحة.

٣١ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، ط٤، ج٥(دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م)، ص٣٤٩.

٣٢ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢(القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م)، ج٨، ٣١٤.

٣٣ السيوطي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٤٩.

٣٤ الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ٥٧٧.

٣٥ سورة الصافات: ٩٧-١٠١.

٣٦ الطبري، ج١٢، ص٥٧٦.

٣٧ السيوطي، المصدر السابق، ج١٢، ص٤٢٨.

٣٨ هو نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح أو أنه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح أو أنه ابن ماش ابن ارام ابن سام. وكان في أرض بابل، وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة الذين ذكروا في القرآن وهو من الملوك الكافرين . وهو أول جبار في الأرض، وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية وكان قد طغا وتجبر وعتا وآثر

الحياة الدنيا وهو الذى جادل مع ابراهيم –عليه السلام– فى ربه وعاقبه بالحرق. انظر: الامام أبى الفداء إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، ج١ (الناشر: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨م)، ص١٨٧؛ http://ar.wikipedia.org.

٣٩ سورة الأنبياء : ٦٩.

٤٠ السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص١١٢.

٤١ السيوطي، المصدر السابق، ج١٠، ص٢٩٤.

٤٢ القرطبي، المصدر السابق، ج١٥، ص٩٧.

٤٣ صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري ٤٥٦٣، ٤٥٦٤. صحيح مسلم. رقم٦٦٧٣.

٤٤ سورة فرقان : ٧٤.

٤٥ جامع البيان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٥٣٠.

٤٦ مفاتيح الغيب، ج٢٤، ص٤٨٨.

٤٧ سورة الصافات: ١٠٠.

٤٨ الطبري، المصدر السابق، ج١٩، ص٥٧٧.

٤٩ محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ص١٠٠، المكتبة الشاملة، الإصدار ٣.٢٨.

٥٠ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ج٢٣، ط١(بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٦٠.

٥١ الدكتور عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج١٢ (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص١٠٠٤.

٥٢ المصدر السابق، ج١٢، ص١٠٠٤.

٥٣ سورة مريم: ٤٨.

٥٤ أبو يوسف محمد زايد، فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن، ج٢، ص٣٦٢، المكتبة الشاملة، الإصدار ٣.٢٨.

٥٥ أبو عبد الله بن أبي زمنين الامري، تفسير ابن أبى زمنين، ج١، ص٣٢٩، المكتبة الشاملة، الإصدار ٣.٢٨.

٥٦ ابن كثير، المصدر السابق، ج٤، ط٢، ص٥١٤.

٥٧ سورة ابراهيم : ٣٧.

٥٨ صحيح البخاري حسب ترتيب فتح الباري، ج٤، رقم ٣٣٦٢، ص١٧٣؛ والسنن الكبرى للنسائى، ج٧، ص٣٩٩؛ السنن الكبرى للبيهقي، ج٥، ص٩٨؛ مصنف عبد الرزاق، ج٥، ص١٠٥.

٥٩ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق : صدقي محمد جميل، ج٦(بيروت: بيروت، ١٤٢٠ هـ)، ص٤٨٦.

٦٠ التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ج١٢، ص٢٦٢.

٦١ محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم، ج١(الناشر : الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٠ م)، ص٣٧٥.

٦٢ سورة القصص: ٢١.

٦٣ سورة القصص: ٢٢.

٦٤ القرطبي، المصدر السابق، ج١٣، ص٢٦٦.

٦٥ سورة القصص: ٢٣-٢٤.

٦٦ سورة القصص: ٢٤.

٦٧ سورة القصص: ٢٥.

٦٨ ابن كثير، المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٨.

٦٩ تفسير قرطبي، ج٢، ص٣١٣.

٧٠ أبو الحسن على بن محمد الكيا هراسى، أحكام القرآن، بيروت: دارلكتب العلمية، ١٤٠٥ ه، ج٤، ص٢٦٩.

٧١ سورة مريم٢-٣.

٧٢ سورة الأعراف: ٥٥.

٧٣ السيوطي، المصدر السابق، ج١٠، ص١٠.

٧٤ الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص٢٢٣.

٧٥ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل(القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت)، ص١٧٢.

٧٦ أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، بحر العلوم، ج٣، ص٦٦، المكتبة الشاملة، الإصدار ٣.٢٨.

٧٧ سورة ٣-٤.

٧٨ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج٣(بيروت: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)، ص٣٦١.

٧٩ سورة الأعراف: ١٨٠.

٨٠ تاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، الطبعة الأولى، ج١(الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ)، ص٥٩.

٨١ النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن ، المجتبى من السنن، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة، ج٣، ط٢(حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية،١٤٠٦ – ١٩٨٦)،ص٥٤.

٨٢ النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، سنن النسائي الكبرى، تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري، ج١، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م)، ص٣٨٦.

٨٣ سنن الترمذي، المصدر السابق، ج٥، ص٥٣٩.

٨٤ سورة النمل: ١٩.

٨٥ سورة آل عمران: ١٦.

٨٦ سورة آل عمران: الآية ٥٣.

٨٧ سورة أل عمران: ١٩٣ – ١٩٤.

٨٨ سورة المؤمنون: ١٠٩.

٨٩ سورة الأنبياء: ٨٣.

٩٠ سورة الزمر: ٣.

٩١ سورة الأنبياء : ٨٢–٨٣.

٩٢ الطبري، المصدر السابق، ج١٢، ص٣٦٥.